📖قال المؤلف -رحمه الله-: **أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَالْهِجْرَةُ الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ.**

وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وساءت مَصِيرًا * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[النساء: ٩٧-٩٩].

قوله: أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ: يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم أمضى عشر سنوات من الفترة المكية وهو يدعو إلى التوحيد، ثم بعد هذه العشر حصل حادث عظيم: وهو العروج إلى السماء، وقد اشتدت عليه الأزمة والمحنة في آخر هذه العشر ؛ فقد توفيت زوجه خديجة التي كانت تسري عنه وتسليه عما يلقى من أذى قريش، وتوفي عمه أبو طالب الذي كان يحوطه ويدفع عنه – على أنه كان مشركًا-؛ فوقع للنبي صلى الله عليه وسلم آية عظيمة من آيات نبوته: وهي العروج به إلى السماء، فبينما كان النبي صلى الله عليه وسلم نائمًا في الحجر إذ أتاه جبريل عليه السلام ومعه دابة كالبغل أو أكبر من البغل يقال لها: البراق؛ فأمره أن يركب؛ فركب النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة، وكان خطوها إلى منتهى بصرها؛ فلأجل ذا بلغ بيت المقدس في تلك الليلة التي عرج بها، ووجد النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء قد جمعوا وحشدوا له؛ فأمهم في ذلك المكان، وذلك لإظهار فضله، وأنه سيد ولد آدم، وأنه إمام المرسلين؛ فأم أنبياء الله جميعًا، أما كيف كان ذلك؛ فهذا أمر الله عليه قدير أن يحضرهم في صفة من الصفات لنبيه صلى الله عليه وسلم؛ فالذي أحياهم وأماتهم قادر على أن يعيدهم؛ فأمهم النبي صلى الله عليه وسلم في بيت المقدس {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الإسراء: ١] ، ثم بعد ذلك عرج به إلى السماوات العلى احتمله جبريل عليه السلام وذهب به في أجواز الفضاء أحوال أو أمور لا تدركها عقولنا، وصعد به إلى السماوات العلى حتى أنه كان يأتي إلى كل سماء فيستفتح ويفتح له؛ فوجد في السماء الأولى أبانا آدم عليه السلام، وعن يمينه أرواح المؤمنين، وعن شماله أرواح الكافرين من ذريته؛ فإذا التفت جهة اليمين ضحك، وإذا التفت إلى جهة الشمال بكى، وقال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم ذهب إلى السماء الثانية فإذا فيها عيسى بن مريم عليه السلام، ويحيى بن زكريا، وهما ابنا الخالة، ثم رقى إلى السماء التي بعدها فوجد فيها لعله هارون عليه السلام، ثم بعد ذلك وجد في الرابعة إدريس، أو لعله العكس، ثم وجد في السماء الخامسة موسى بن عمران، وكلهم يرحب به ويقول: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح إلى أن بلغ السماء السابعة؛ فوجد فيها أباه إبراهيم وقد أسند ظهره إلى البيت المعمور، ثم بعد ذلك بلغ سدرة المنتهى

وغشيها من الحسن والبهاء ما لا يستطيعه وصف: {إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} [النجم: ١٦، ١٧] ، ثم بعد ذلك وقف جبريل عليه السلام وقال: هذا حدي لا أتجاوزه، وخطا النبي صلى الله عليه وسلم وتقدم إلى موضع سمع فيه صريف أقلام القدر، فأوحى الله تعالى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه الصلوات أول الأمر خمسين صلاة في اليوم والليلة، وهبط بمن صلى الله عليه وسلم-حتى مر بموسى عليه السلام؛ فسأله فأخبره فقال: إني عالجت بني اسرائيل قبلك وإن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فسأله التخفيف، فرجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه فحط عنه خمسًا ورجع أدراجه فمر بموسى فقال له مثلما قال، ورجع إلى ربه فلم يزل يتردد بين موسى بن عمران عليه السلام وبين ربه عز وجل حتى بلغ خمسًا، وأمره موسى أن يرجع إلى ربه لكنه قال: (استحييت من ربي) فأمضى الله فريضته وقال: (هي خمس في الفعل خمسون في الميزان)(١)، ونزل النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الصلوات الخمس.

قوله: وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ: إذن هذه الصلوات الخمس لم تفرض إلا في آخر ثلاث سنوات في مكة، وأول ما فرضت الصلاة ركعتان ركعتان، ثم بعد ذلك زيد في صلاة الحضر، وأقرت صلاة السفر على الفريضة الأولى، والذي يظهر -والله أعلم- أنه أيضًا لم تكن فرضت الجماعة، وإنما فرضت الجماعة والصلاة الرباعية بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

قوله: وَبَعْدَهَا أُمِرَ بالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ: أي بعد هذه السنوات الثلات التابعة للعشر الأول، وبهذا تكون ثلاثة عشرة سنة، أُمر بالهجرة إلى المدينة، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يخرج عن أمر ربه لا يمكن أن يهاجر إلا بإذنه؛ فأذن الله تعالى له بالهجرة، وكان قد شرع في إرسال أصحابه فرادى ومثنى إلى المدينة، وصاروا يصلون إلى المدينة أرسالًا يخرجون خفية إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فإنه قام في بطن مكة وقال: من أراد أن تثكله أمه فليلقني في بطن هذا الوادي؛ فلم يلحقه أحد -قوي أمين رضي الله عنه-، أما نبينا صلى الله عليه وسلم فقد استشعر أبو بكر الصديق رضي الله عنه نية رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة؛ فأعد راحليتن وأعلفهما وأعدهما لهذه المناسبة؛ فلم يُر أبو بكر الصديق في ساعة الهاجرة، لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم-يأتي فيها عادة كان يأتي إما أول النهار أو آخر النهار فأتى في ساعة لم يكن من عادته أن يأتي فيها مبالغة في الحذر والحيطة؛ فقال لأبي بكر الصديق: أخرج من عندك؛ لأن الأمر خطير، ولا بد من اتخاذ السرية؛ فقال: إنما هم أهل يا رسول الله؛ فقال: إنه قد أُذن لي بالهجرة؛ فقلت يا رسول الله: الصحبة، قال: الصحبة؛ فبكى أبو بكر الصديق رضي الله عنه، تقول عائشة: فما علمت أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يبكي ذلك اليوم، كيف لا يبكي؟!، وهو سيصحب محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ويكون له هذا الفخر العظيم إلى يوم القيامة، وفعلًا سرّبا هاتين الناقتين، وقد قال له النبي صلى الله عليه وسلم: آخذها بالثمن، وهذا يدل أنه في أمور الطاعات والقرب ينبغي أن يبذل الإنسان من ماله،

(١) انظر: صحيح البخاري(٣٨٨٧).

وألا يعتمد على أعطيات الآخرين قدر المستطاع، فقال: هي لك يا رسول الله، قال: آخذها بالثمن، وكذا صنع النبي صلى الله عليه وسلم في بناء المسجد بعد أن هاجر، فالمهم أنهما سربا هاتين الناقتين وخرجا من الباب الخلفي؛ لأن أعين قريش كانت ترصدهما، وقد شعرت قريش فعلًا أن النبي صلى الله عليه وسلم على وشك الخروج، وأعدت للأمر عدة؛ فاجتمعوا في دار الندوة، وتشاوروا فيما بينهم حتى إنه قر رأيهم على أن ينتدبوا من كل قبيلة من قبائل قريش فتى جلدًا شابًا معه سيف ويحيط ببيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هم بالخروج ضربوه ضربة رجل واحد فتفرق دمه في القبائل، لكن الله تعالى أنجاه قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [يس: ٩] ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم من بين ظهرانيهم، وأوى وصاحبه إلى غار يقال له: "غار ثور"، وباتا فيه ثلاثة أيام حتى ينقطع الطلب، وجعلت قريش لمن يأتي بالنبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه مائة من الإبل- وهو عرض مغرٍ-، يتمناه كل عربي إذ الإبل هي أنفس أموال العرب، ولكن الله سلم؛ فظل رسول الله صلى الله عليه وسلم من حين خروجه إلى أن بلغ المدينة عشرة أيام حتى بلغ المدينة يوم اثنين، وكان في هجرته صلى الله عليه وسلم يكمن نهارًا ويسير ليلًا، وبذل أبو بكر الصديق رضي الله عنه من ضروب الفداء والرعاية بنبينا صلى الله عليه وسلم، ما بلغه هذه الدرجة: أن كان أفضل هذه الأمة بعد نبيها، ومما جرى له أنهما دخلا غارًا في أثناء مسيرهما فقال؛ أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم: امكث يا رسول الله حتى أستحث لك الغار حتى لا يكون فيه سبع أو حية أو غير ذلك؛ فدخل رضي الله عنه حتى إذا استوثق دعا النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم رأسه الشريفة على فخذ أبي بكر، وجعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه يتلمس الغار؛ فوجد فيه حجرين؛ فخشي أن يخرج منهما شيء يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فألقمهما عقبيه، فخرجت عقرب من أحد هذين الجحرين وجعلت تلسغ عقب أبي بكر الصديق وهو يتألم ولا يبدي حراكًا حتى جعلت دموعه تنهمر من عينيه؛ فلم يُرع النبي صلى الله عليه وسلم إلا ودموعه تسقط على وجهه الشريف؛ فقام النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقال : مالك فقال : عقرب يا رسول كرهت أن أوقظك؛ فمسح النبي صلى الله عليه وسلم على عقبه حتى برئ؛ ولهذا لما تحدث أناس في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه -وربما فضله بعضهم على أبي بكر- قال : والله ما يساوي آل الخطاب ليلة من ليالي أبي بكر رضي اللهم عنهم أجمعين؛ فكانت له هذه المنقبة العظيمة {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٤٠] ؛ فحصلت الهجرة التي ذكر.

قوله: وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ: هذا هو تعريف الهجرة، والهجر من الترك، والانتقال من مكة إلى المدينة هذه هي الهجرة الخاصة التي يعلق عليها الفضل العظيم، والتي عليها قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية)[1]؛ فهي منقبة عظيمة لأهلها، فمن هاجر من مكة إلى المدينة؛ فهو

(١) صحيح البخاري(٢٧٨٣)و صحيح مسلم (١٨٦٤).

من المهاجرين، أما الهجرة بالمعنى العام فكما عرفها المصنف: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وهي بهذا التعريف باقية إلى يوم القيامة لا يمكن أن تنقطع ما دام ثمَّ بلد شرك وبلد إسلام؛ فإن هذه الشريعة باقية لا تنقطع.

وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وساءت مَصِيرًا * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٧-٩٩]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

هذا دليل على وجوب الهجرة، وعلى أن من ترك الهجرة مع القدرة عليها؛ فقد أتى كبيرة تورده النار، ويستحق بها النار إلا من استثنى الله تعالى، قال تعالى: {إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا } [النساء: ٩٨، ٩٩].

والله أعلم.